الخيال في رحلة ابن بطوطة: مقاربة براغماتية جمالية

إعداد

د. منال "محمد هشام" سعيد نجار

أستاذ اللسانيات الاجتماعيّة والبراغماتيّة المشارك

قسم اللّغة العربيّة –كليّة التّربية والآداب

جامعة تبوك – المملكة العربيّة السعوديّة

الملخص

حين تتّسع ملكة الإحساس والبصيرة والرّؤى، وتقع في النّفس خواطر، ويبلغ الانبهار أوجه، يلوذ خطاب الرّحلة لتوسيع قوى الخيال، وقد رأى علماء العرب القدماء: أنّها قوّة من أعجب القوى المدركة؛ حيث يمكن للإنسان عن طريقها وفي ساعة واحدة أن يجول في المشرق والمغرب والسّهل والجبل وفضاء الأفلاك وسعة السّموات، ويتصوّر من الأشياء ما له حقيقة، وما لا حقيقة له، فيتخيّل بهذه القوّة طائرًا له أربع قوائم، أو فرسًا له جناحان، وما شاكل ذلك، ممّا يعمله المصوّرون من الصّور المنسوبة إلى الجنّ والشّياطين وعجائب البحر، لهذا الأمر ازداد احتلال عنصر الخيال على جانب لا يستهان به من أدب الرّحلات، فأدب الرّحلات لا يسعه البتّة أن يكون له وجود إلّا إذا أقام نوعًا من التّوازن بين الخيال والواقع. وانطلاقًا من رحلة ابن بطوطة، تحاول هذه الورقة أن تؤسّس من جديد لخيال أدبي عربي، يهتم بقضايا الإنسان وشجونه، يدفع للتّفكير في نتائج هذا الخيال، ثم يتجاوز الواقع لاستشراف المستقبل، فالتّخييل ضرب من ضروب تعليم الجمهور والعامة. وذلك من خلال تسليط الضّوء على القوى الخياليّة لرحلة ابن بطوطة في القرن الرّابع عشر الميلادي، وكَشْف بُعدها الجمالي البراغماتي، وهو منهج الدّراسة. حيث جعلت البراغماتيّة فَهْم المتلقّي مَرْجع القصْد، واعتدّت بالجانب التّأثيري له، واعْتَنت بتأويل ما يقصده المتكلّم من وراء أقواله التّخييليّة في مقام معيّن. فخرجت الورقة بأنّ للقوى الخياليّة قدرة على إثارة أهواء المتلقّي، والتّأثير على جوارحه، وفي طرح أنوار من الأفكار تضيء له الطّريق، وفي إلهامه وحَفْز عقله على السّير في طرق جديدة، ودفعه إلى التّفكير في مستقبل البشريّة، كلّ ذلك من خلال تقديم نصّ قصصي ممتع مؤثّر مقنع.

الكلمات الدلاليّة: الخيال، الرّحلة، أدب، ابن بطوطة.

Abstract

When driven by vision and emotions intense enough to evoke thought and utmost amazement, here comes the discourse of Journey to open horizons for vivid imagination. Old Arabs viewed the Journey as the most miraculous power obtained. Travelling from east to west, from plains to mountains, and through skies helps us transcend reality into a unique imaginary world of real and unreal images. Hence, imagination has undoubtedly acquired an increasing consideration as an essential and dynamic component of Travel Literature - a genre that seeks to find balance between reality and imagination.

This paper, therefore, takes the Journey of Ibn Battuta as an example of Travel Literature to shed light on the power of imagination exhibited in his journey, attempting to explore its aesthetic as well as pragmatic perspectives.

Furthermore, the study reveals the ability of imagination in Ibn Battuta's Journey to stimulate the readers thought, inspiration and interests, encouraging them to seek a better future free from the traditional and crippling tendencies of thought; all of which was presented in a text of an interesting, influential and persuasive dicourse.

Based on the Journey of Ibn Battuta, the study endeavors to re - establish a new Arabic fiction in which imagination highlights the concerns of human beings to motivate readers to think beyond the present towards future..

المقدمة:

لم يَخْلُ الأدب العربي القديم من ملامح الخيال العلمي فيما قدّمه من أساطير وشخصيّات أدبيّة خياليّة مشهورة في (رسالة الغفران) للمعري، وفي (المقامات) للحريري، وفي (ألف ليلة وليلة) الّتي تتميّز بخيالها العجائبي الغرائبي، وفيها العديد من الأمثلة لأحلام البشر في: حكايات الجنّ والعفاريت ومخاوفهم، والحصان الطّائر، والبساط السّحري، وبلّورة الرّؤيا، وطاقيّة الإخفاء ومصباح علاء الدّين، وعلي بابا والأربعين حرامي، والسّندباد البحري، والشّاطر حسن، وتحويل الإنسان إلى حيوان، وغير ذلك من الخوارق والتّحدّيات الّتي تندرج تحت لواء الخيال، فيعمل الخيال فيها على سموّ الذّوق، وتربية الجمال، والارتقاء بمستوى التّفكير.

وتُعَدّ رحلة ابن بطوطة من أهمّ المصادر في تربية ذائقة جماليّة لدى المتلقّي، وذلك بما احتوته من قصص تعتمد على الخيال في سَرْدها، تقوم على إطلاق سراح ذلك السّندباد القابع كجنّي القمقم داخل المتلقّي، فينشرح قلبه وتفتح بصيرته.

والمنهج الّذي تتّخذه الورقة لدراسة البعد العجائبي الغرائبي الخيالي لقصص ابن بطوطة هو المنهج البراغماتي، الّذي ينظر إلى كلام مستعمل من قِبَل شخص معيّن، في مقام معيّن، موجَّه إلى مخاطَب معيّن؛ لأداء غرض معيّن.(١)

وتأتي أهميّة الورقة في: أنّها من الأوراق الرّائدة -على حدّ عِلْم الباحثة- في الوقوف على البُعد العجائبي الغرائبي الخيالي في قصص رحلة ابن بطوطة، ودراستها دراسة براغماتيّة جماليّة.

(١) ينظر: نجار، منال، (٢٠١١)، **نظريّة المقام عند العرب في ضوء البراغماتيّة**، (ط١)، الأردن، إربد، عالم الكتب الحديث، ص١٧-١٨. وينظر:

Stephen C. Levinson، Pragmatics، Cambridge University Press، London، New York،1983، p21

وتحاول الورقة أن تجيب عن الأسئلة التّالية:

١. ما مفهوم الخيال وماهيّته؟

٢. هل الاستمتاع بسماع القصص الخياليّة والخرافيّة مقصود لذاته؟

٣. لماذا اشتدّ ولوع النّاس بالتّخيّل؟

٤. هل معايير المعرفة دائمًا علميّة في تمثّل حقائق الأشياء؟

٥. ما دور الخيال في المعرفة؟

٦. هل يضبط الخيال المعارف العقليّة أم يُزلزلها؟

٧. هل التّخييل ضرب من ضروب تعليم الجمهور والعامة؟

٨. هل تلبّي القصص الخياليّة في رحلة ابن بطوطة حاجات نفسيّة متعدّدة للمتلقّي؟

مفهوم الخيـــــال وماهيّته:

الخيال في اللّغة هو: الظّنّ والتّوهّم والتّصوّر،[١] فالإنسان يتصوّر أو يُنشئ أو يُركّب أمورًا غير مألوفة في حياته فيرتفع عندئذ فوق الواقع؛ لأنّ نقل الواقع كما هو لا يُعَدّ خيالًا. وقد اختلف الفلاسفة والنقّاد في مفهوم الخيال؛ فهناك من يرى أنّ الحواس تسيطر على الخيال، ومنهم من يرى أنّه تابع للأحاسيس، وبعضهم يرجعه إلى العقل، فقالوا: "إنّ الخيال ملكة من ملكات العقل، بها تمثّل أشياء غائبة كأنّها ماثلة حقًّا لشعورنا ومشاعرنا،"[٢] وقالوا: "إنّه الملكة المولدة للتّصورات الحسّية للأشياء المادّية الغائبة عن

(١) أبو البقاء الكفوي، أيوب بن موسى (ت: ١٠٩٤هـ/١٦٨٣م)، (١٩٨٢)، **الكلّيات معجم في المصطلحات والفروق اللّغويّة**، (ط٢) تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، دمشق، وزارة الثّقافة، ص ٣٠٥ - ٣٠٦، وينظر: أنيس، إبراهيم ومنتصر، عبد الحليم، والصوالحي، عطية، وأحمد، محمد خلف الله، (١٣٩٢-١٩٧٢)، **المعجم الوسيط**، (ط٢)، أشرف على الطّبع: حسن علي عطية ومحمد شوقي أمين، القاهرة، ج١، مادّة (خيل).

(٢) عبد الحميد، خان محمد، (١٩٣٧)، **الأساطير العربيّة قبل الإسلام**، القاهرة، ص ٢٢.

النّظر، وهي على نوعين: إمّا أن تستعيد الصّور الّتي شاهدها صاحبها من قبل وتُسمّى عندئذ المخيّلة المتذكّرة أو المستعيدة، أو تعتمد صورًا سابقة فتولّد منها صُورًا جديدة وتسمّى عندئذ المخيّلة الخلّاقة"،[1] ويرى إخوان الصّفا: أنّ العلماء تائهون في بحر قوّة الخيال وعجائب متخيّلاتها؛ فالإنسان "يمكنه بهذه القوّة في ساعة واحدة أن يجول في المشرق والمغرب، والبرّ والبحر، والسّهل والجبل، وفضاء الأفلاك وسعة السّموات، وينظر إلى خارج العالم، ويتخيّل هناك فضاء بلا نهاية، وربما يتخيّل من الزّمان الماضي وبدء كون العالم، ويتخيّل فناء العالم، ويرفع من الوجود أصلًا، وما شاكل هذه الأشياء ممّا له حقيقة وممّا لا حقيقة له."[2] ويصوّر الغزالي عمل التّخيّل الابتكاري فيقول:" ثمّ الخيال يتصرّف في المحسوسات، وأكثر تصرّفه في المبصرات، فيُركّب من المرئيّات أشكالًا مختلفة، آحادها مرئيّة، والتّركيب من جهته؛ فإنّك تقدر أن تتخيّل فرسًا له رأس إنسان، وطائرًا له رأس فرس"[3]، أو أن تتخيّل فرسًا له جناحان أو حمارًا له رأس إنسان أو جملًا على رأس نخلة، أو نخلة ثابتة على ظهر جمل أو طائرًا له أربع قوائم،[4] أو أن تتخيّل إنسانًا له رؤوس كثيرة يطير إلى السّماء ويترل عنها، أو يقف في النّار، أو أن تتخيّل إنسانًا أعظم من فيل ومن جبل ومن جملة العالم، وما أشبهها من الصُّور والأفعال الممتنعة الوجود. وبالجملة تتخيّل وتتوهّم كلّما تريد، وكما تريد، وبأيّ مقدار، وعدد تريد. أي: لها حرّيّة التّصرّف في صورها وزمانها.[5]

(١) عبد النور، جبور، (١٩٧٩)، **المعجم الأدبي**، بيروت، دار العلم للملايين، ص٢٤٤.

(٢) **رسائل إخوان الصّفا وخلّان الوفاء**، (١٣٤٧- ١٩٢٨)، عُني بتصحيحه: خير الدين الزركلي، مصر، المطبعة العربيّة، ج٣، ص٤٢٠.

(٣) الغزالي، محمد بن محمد (ت: ٥٠٥ه/١١١١م)، (**١٩٦١م**)، **معيار العلم**، تحقيق: سليمان دنيا، مصر، دار المعارف، ص٩١.

(٤) **رسائل إخوان الصّفا وخلّان الوفاء**، ج٣، ص٤١٦.

(٥) ابن سينا، الحسين بن عبد الله (ت: ٤٢٧ه/١٠٣٧م)، (١٩٧٥م)، **الشّفاء- النّفس**، تحقيق جورج قنواتي وسعيد زايد، القاهرة، ، ص٢٧٨- ٢٧٩م.

ويرى ابن سينا أنّ الخيال أشرف القوى العقليّة وأعجبها، و"أحقّها بأن تسمّى عقلا"[١]؛ لأنّها أوّلًا: "أكثر هذه القوى أعمالًا وأقدرها على أفعالها"، وثانيًا: "لأنّها لاتكلّ ولا تعجَز عمّا تريد في كلّ وقت وكلّ حال عن فعلها ألبتّة"، بخلاف قوّتي الحسّ والفكر اللّتين تكلّان، أو لا تستطيعان أن تدركا أشياء كثيرة أو قويّة أو غامضة أو بعيدة في الوقت نفسه.[٢]

التّشكيك في العجائب والغرائب الّتي شهدها ابن بطوطة في رحلته:

عرض ابن بطوطة في رحلته صورًا رائعة، وتفاصيل ساحرة لجزء كبير من العالم العربي والغربي في القرن الرّابع عشر الميلادي، عَبْر القصّ والتّخييل لعوالم مدهشة وعجيبة وغريبة؛ إذ صوّر ما شاهده من الحيوان والنّبات والبلاد، فأنشأ في رحلته عالَمًا روحيًّا ينتزعنا من الواقع. فمنذ تحدَّث ابن بطوطة في مسجد فاس في بلاد المغرب، سنة ٧٥٤هـ/١٣٥٣م، عن تلك العجائب أو الغرائب الّتي شهدها أو سمعها في رحلته، **والنّاس يعلنون أو يُسِرّون شكوكًا** تثور في نفوسهم، نحو بعض ما قال إنّه شهده أو سمعه، خاصّة أحاديثه العجيبة عن بلاد الهند، ومشاهداته الّتي سجّلها عن بلاد الصين و أوروبا. يقول ابن خلدون: "ورد على المغرب لعهد السلطان أبي عنان، من ملوك بني مرين، رجل من مشيخة طنجة يُعرَف بابن بطوطة، كان قد رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق، وتقلّب في بلاد العراق واليمن والهند، ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند، واتّصل بملكها لذلك العهد، وهو السّلطان محمد شاه وكان له منه مكان، واستعمله في خطّة القضاء بمذهب المالكيّة في عمله، ثم انقلب إلى المغرب واتّصل بالسّلطان أبي عنان، وكان يحدّث عن شأن رحلته، وما رأى من العجائب بممالك الأرض، وأكثر ما كان

(١) ابن سينا، (١٩٥٦م)، **تأويل الرّؤيا**، تحقيق: محمد عبد الحميد خان، ضمن، Avicenna Commemoration Volume، Calcutta، ص ٢٧٥- ٢٧٨.

(٢) ابن سينا، **الشّفاء- النّفس**، ص٢٧٨- ٢٧٩

يُحدِّث عن دولة صاحب الهند، ويأتي من أحواله بما يستغرِبه السّامعون، مثل: أنّ ملك الهند إذا خرج للسّفر أحصى أهل مدينته من الرّجال والنّساء والولدان، وفرض لهم رزق ستّة أشهر يدفع لهم من عطائه، وأنّه عند رجوعه من سفره، يدخل في يوم مشهود يبْرز فيه النّاس كافّة إلى صحراء البلد ويطوفون به، وينصبُ أمامه في ذلك المحفل منجنيقات على الظّهر، يرمى بها شكائر الدّراهم والدّنانير على النّاس إلى أن يدخل إيوانه.... وأمثال هذه الحكايات. **فتناجى النّاس في الدّولة بتكذيبه**".[1]

وتناجى سامعو ابن بطوطة من أهل الأندلس بتكذيبه أيضًا، والشّكّ في أحاديثه، عندما تحدّث إليهم عمّا شاهد في بلاد الشّرق البعيد؛ يذكر أبو القاسم بن العاصم –من أعلام الأندلس– طريق رحلة ابن بطوطة ثمّ يقول: "ثم قفل إلى بلاد المغرب، ودخل جزيرة الأندلس، فحكى بها أحوال المشرق وما استفاد من أهله فكذّب".[2] **ومن الّذين شكّكوا في بعض ما رواه ابن بطوطة كاتب رحلته ومسجّلها ابن جُزَيّ**، فهو عند بدء تسجيله، يذكر صيغًا وتعابير تثير الشّكّ في بعض هذا الّذي يسمع من أحاديث، يقول ابن جُزَيّ في مقدّمة الرّحلة: "ونقلت معاني كلام الشيخ أبي عبد الله بألفاظ موفية للمقاصد الّتي قصدها، موضّحة للمناحي الّتي اعتمدها، وربما أوردت لفظة على وضعه فلم أخلّ بأصله ولا فرعه، وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار، و لم أتعرّض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار"[3].

وفي العصر الحديث نجد من وصف بعض ما رواه ابن بطوطة بأنّه من "الخرافة

(١) ابن بطوطة، محمد بن عبد الله (ت٧٧٩ه/١٣٧٧م)، (١٩٥٨– ١٣٧٧)، **رحلة ابن بطّوطة: تحفة النّظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، مصر، المكتبة التّجارية الكبرى، ـــ ج١، ص٢٥٦

(٢) ابن الخطيب، محمد بن عبد الله (ت٧٧٦ه/١٣٧٤م)، (١٤٢٤)، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، (ط١)، بيروت، دار الكتب العلميّة،ج٣، ص٢٠٦.

(٣) **رحلة ابن بطّوطة**، ج١، ص٤.

والسُّخْف بمكان".[١] ومنهم من يرى: أنّه يُصوِّر الحقيقة حينًا، ويرتفع بنا إلى عالم خياليّ حينًا آخر،[٢] كحديثه عن حكايات عجيبة من كرامة بعض الشّيوخ،[٣] وقصّة لحية الشّيخ جمال الدين الساوي،[٤] وعمامة قاضي الإسكندرية عماد الدين الكندي،[٥] والشّجرة العجيبة،[٦] وقصّة القلب الفارح،[٧] وحسن المجنون،[٨] وطائفة الحيدريّة ورقصهم داخل النار،[٩] وما تحدّث فيه عن زيارته ما بعد بلاد البلغار والصين، وتلك البلاد الّتي سمّاها بلاد طَواليسي[١٠]-بفتح الطاء وكسر السين- الّتي "دعت كثيرًا من النّقاد إلى التّشكّك في سفره إلى بلاد الصين"[١١]، كحديثه عن قدرة السّحرة في الهند والصين على الأعمال العجيبة[١٢]، وما ذكره عن قَدَم آدم ومشاهدته لها في جزيرة سيلان،[١٣] وما ذكره من قصص عن زنوج إفريقية، وعرائس البحر، وحجّاج الهند، وأكلة لحوم البشر،[١٤] وسكّان نهر الفولجا، وحديث الجرادة،[١٥] والحائك الّذي ينسج الثّياب داخل جوف

(١) العوامري بك، أحمد، وجاد المولى بك، محمود، (١٩٣٣)، **مهذّب رحلة ابن بطّوطة**، القاهرة، وزارة المعارف العموميّة المصريّة، المطبعة الأميريّة، ج١، ص "ي".

(٢) ضيف، شوقي، (د.ت)، **الرّحلات**، (ط٤)، القاهرة، دار المعارف، ص٦.

(٣) **رحلة ابن بطّوطة**،ج٢، ص١٤٩- ١٥٠.

(٤) **رحلة ابن بطّوطة**،ج١، ص١٨.

(٥) **رحلة ابن بطّوطة**،ج١، ص١٠.

(٦) **رحلة ابن بطّوطة**،ج٢، ص١١٤- ١١٥.

(٧) **رحلة ابن يطّوطة**،ج٢، ص٩٧- ٩٩.

(٨) **رحلة ابن بطّوطة**، ج١، ص٩٨.

(٩) **رحلة ابن بطّوطة**، ج١، ص.١١٥.

(١٠) **رحلة ابن بطّوطة**، ج٢، ص١٥٧.

(١١) ضيف، شوقي، **الرّحلات**، ص١٦.

(١٢) **رحلة ابن بطّوطة**،ج٢، ص١٦٢،١٦٤.

(١٣) **رحلة ابن بطّوطة**،ج٢، ص١٣٩-١٤٠.

(١٤) **رحلة ابن بطّوطة**،ج٢، ص٢٠٥.

(١٥) **رحلة ابن بطّوطة**،ج٢، ص٢٠٢.

الشّجرة،[١] وحكاية المشعوذ،[٢] وحديثه عن النّساء ذوات الثّدي الواحد،[٣] والعفاريت والعفاريت الّتي كانت تضرب جزائر ذيبة المَهَل.[٤]

وترى قراءتنا أنّه من الخطأ العلمي أن نَصِم ابن بطوطة بالكذب بسبب هذه الشّكوك، ولا نعتقد أنّه كاذب، فهو حرص أن يودع كتابه كلّ ما شاهده في رحلته من الأمصار وما علق بحفظه من نوادر الأخبار وكلّ من لقيه من ملوك الأقطار وعلمائها وأوليائها "**ليقع الاستمتاع بتلك الطّرف ويعظم الانتفاع بدرّها عند تجريده– يقصد تجريد حديث ابن بطوطة– من الصّدف**"،[٥] وحتّى يقع هذا الاستمتاع وهذه الفائدة، أملى ابن بطوطة من تلك الأحاديث والحكايات والأخبار ومظاهر الحياة المختلفة، "ما فيه نزهة الخواطر، وبهجة المسامع والنّواظر من كلّ غريبة أفاد باجتلائها، وعجيبة أطراف بانتحائها؛"[٦] لأنّ المتلقّي لم يرها أو يقع على مثلها، وفي الوقت نفسه، توخّى فيها إظهار إظهار ألوان مختلفة من التّعبير الخيالي، لم نجده عند غيره في حديث الرّحّالة العرب.

فمن المتّفق عليه: أنّ الرّحّالين العرب قدّموا على مرّ العصور، معارف جغرافيّة وتاريخيّة واجتماعيّة واقتصاديّة في دراسة أحوال البلاد العربيّة والإسلاميّة، والبلاد الأجنبيّة في آسية وإفريقية. والرّحّالة مختلفون في نقل هذه المعارف في رحلاتهم، ومختلفون في تنوّع فهمهم للأمور تحت الظّروف المختلفة الّتي يعيشونها، وابن بطوطة في رحلته كان مثلًا رائعًا في العلاقة بين علم الجغرافية وبين الأدب والخيال. فما جاء به من المعلومات الصّحيحة عن جهات إفريقية المجهولة، وبخارى وكابول وقندهار، والهند والصّين، والبلاد العربيّة، **لا يقلّ**

(١) **رحلة ابن بطّوطة**،ج٢، ص١٩٥.

(٢) **رحلة لبن بطّوطة**،ج٢، ص١٦٨– ١٦٩.

(٣) **رحلة ابن بطّوطة**،ج٢، ص١٣٤– ١٣٥.

(٤) ذيبة على لفظ مؤنث الذيب، والمهل (بفتح الميم والهاء) ينظر: **رحلة ابن بطّوطة**، ج٢، ص١٢٥– ١٢٦.

(٥) **رحلة ابن بطّوطة**، ج١، ص٤.

(٦) **رحلة ابن بطّوطة**، ج١، ص٤.

في فائدته عن اللّغة الفنيّة الخياليّة الّتي روت هذه المعلومات. فهو في رحلاته لا يُقدّم لمستمعيه وقرّائه كتابًا جغرافيًّا، اجتماعيًّا بغية تغذيتهم بما يضمّه من معارف ومعلومات فحسب، بل يقدّم لهم قصّة وحكاية **بغية إمتاعهم**، ومن خلال هذا الإمتاع يزوّدهم بالمعارف الجغرافيّة والاجتماعيّة وغيرها.

الخيال ودوره في تحقيق اللّذّة والمتعة:

يقول الفارابي (ت: ٣٣٩هـ/٩٥٠م): "كذلك ههنا معارف أخر(خارجة) تحصل بالحسّ، خارجة عن علم أسباب الأشياء المحسوسة، قد يتشوّقها الإنسان، ويقتصر منها على عِلْمها وإدراكها فقط، وعلى اللّذة الّتي تلحقه من إدراكها، مثل الخرافات والأحاديث، وأخبار النّاس وأخبار الأمم، الّتي إنّما يستعملها الإنسان ويسمعها ليتفرّح بها فقط، فإنّه ليس معنى التفرّح سوى أن ينال الإنسان راحة ولذّة فقط .. وكل ما كان إدراكه لما يدركه أتقن كانت لذّته أكْمَل. وكل ما كان المدرك أفضل وأكمل في نفسه كان الالتذاذ بإدراكه أكْمَل وأَتَم."[(١)] لهذا كان ابن بطوطة يدوّن كُلّ ما يقصّ عليه من أساطير وخرافات، فهي وسائل تخييليّة لتحقيق اللّذة أو الإمتـــاع.

ويرى ابن سينا (٤٢٧هـ/١٠٣٧م) أنّ اللّذة أو المتعة الّتي يحقّقها التّخيّل في تلك القصص والخرافات والأساطير، هي الّتي تسوّغ للمتلقّين الإقبال عليها، وتفضيلها على الواقع، وبها يفرحون رغم بُعدها واختلافها عن هذا الواقع.[(٢)] يقول ابن سينا: إنّك لا تفرح بإنسان، ولا عابد صنم يفرح بالصّنم المعتاد، وإن بلغ الغاية في تصنيعه وتزيينه، ما

(١) الفارابي، محمد بن محمد (ت: ٣٣٩ه/٩٥٠م)، (١٩٦١م)، **فلسفة أرسطو طاليس وأجزاء فلسفته ومراتب أجزائها والموضع الذي منه ابتدأ وإليه انتهى**، تحقيق: محسن مهدي، بيروت، دار مجلّة شعر، ص٦١.

(٢) ابن سينا، الحسين بن عبد الله (ت: ٤٢٧ه/١٠٣٧م)، (١٩٥٣)، **فنّ الشّعر من كتاب الشّفاء ضمن كتاب أرسطو طاليس، فنّ الشّعر**، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، القاهرة، مكتبة النّهضة المصريّة، ص١٧٩.

تفرح بصورة منقوشة محاكيه؛ ولأجل ذلك أُنشئت الأمثال والقصص.[1]

ويؤكّد ابن رشد (٥٩٥هـ/١١٩٨م) ذلك، فيرى أنّ النّاس يفضّلون الشّيء المحاكى عن صورته الحقيقيّة في الواقع"، فالالتذاذ ليس يكون بذِكْر الشّيء المقصود ذكره دون أن يحاكى، بل إنّما يكون الالتذاذ به والقبول له إذا حوكي، ولذلك لا يلتذّ إنسان بالنّظر إلى صور الأشياء الموجودة أنفسها، ويلتذّ بمحاكاتها وتصويرها بالأصباغ والألوان، ولذلك استُعْمِل النّاس في صناعة الزّواقة والتّصوير".[2]

ولأنّ التّخييل يعدّل من صورة الواقع، ويُخلّف إحساسًا باللّذّة والمتعة -وذلك لتقديمه الصّورة الماثلة في الواقع بشكل حيوي وحسّي ملموس- "اشتدّ ولوع النّفس بالتّخيّل، وصارت شديدة الانفعال له، حتّى أنّها ربّما تركت التّصديق للتّخيّل، فأطاعت تخيُّلَها وألغت تصديقها"[3]. فـ: "الإنسان كثيرًا ما تتبع أفعاله تخيّلاته، أكثر ممّا تتبع ظنّه أو علمه"[4]، وترى الورقة أنّ القوّة التّخييليّة، يمكن الانتفاع بها في خطاب الرّحلة الموجّه للجمهور والعامّة، على أنّها وسيلة خادعة، أو غشّ ينتفع به في ترويج الشّيء على من ينخدع وينغش؛ فابن سينا رأى سابقًا، أنّ الاستعارة يمكن أن ينتفع بها في الخطابة الموجّهة للجمهور والعامّة، على أنّها وسيلة خادعة أو غشّ ينتفع به في ترويج الشّيء على من ينخدع وينغش، يقول ابن سينا: "وليعلم أنّ الاستعارة في الخطابة ليست على أنّها أصل، بل على أنّها غشّ ينتفع به في ترويج الشّيء على من ينخدع وينغش، ويؤكّد عليه الإقناع الضّعيف بالتّخييل، كما تغشّ الأطعمة والأشربة، بأن يخلط معها شيء غيرها؛ لتطيب به

(١) ابن سينا، **فنّ الشّعر**، ص١٧٩.

(٢) ابن سينا، **فنّ الشّعر**، ص٢١٠.

(٣) القرطاجني، حازم بن محمد (ت٦٠٨ه/١٢١١م)، (١٩٨٦)، **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، (ط٣)، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ص١١٦.

(٤) الفارابي، محمد بن محمد (ت٣٣٩ه/٩٥٠م)، (١٩٩٦)، **إحصاء العلوم**، (ط١)، قدّم له وشرحه وبوّبه علي بو ملحم، (دار ومكتبة الهلال للطّباعة والنّشر)، ص٤٢.

أو لتعمل عملها فيروّج أنّها طيّبة في أنفسها"؛[١] فالقوّة التّخييليّة هي الّتي تطيّب وتُجمّل وتزيّن، وتفخّم المعنى الّذي يقصده القاص، وتجْعَل له رونقًا وبهاء.[٢]

والسّؤال الّذي تطرحه الورقة هنا: **هل الاستمتاع بسماع القصص والخرافات مقصود لذاته؟**

لقد أدرك الفلاسفة المسلمون: أنّ الشّعور باللّذة أو المتعة، يحقّق نوعًا من الرّاحة للإنسان، يُعينه على استرداد طاقاته الّتي يتوجّه بها نحو أفعال الجدّ، وتجديدها،[٣] حيث يرى الرازي (ت٣٢٠هـ/٩٣٢م) أنّه ينبغي أن يريح العاقل جسده من (الهمّ والفكر)، بأن ينيله من اللّذة بقدر ما يصلحه ويحفظ عليه صحّته؛ لئلّا يخور وينهد وينهك،[٤] وفي الوقت نفسه، يؤكّد الرازي على أنّ اللّذة أو المتعة لا بدّ من أن تكونا من أجل تجديد طاقات الإنسان؛ ليواصل فكره وهمّه اللّذين يصلان بالإنسان العاقل إلى غاياته الإنسانيّة، وذلك عندما قال: "فإنّه ينبغي أن يكون نيلنا وإصابتنا من "اللّذة لا أنّها لها لنفسها، بل لكي نتجدّد ونقوى به على العدوّ في فكرنا وهَمِّنا اللّذين بهما نبلغ مطالبنا."[٥] وأدرك الفارابي ضرورة اللّذة في حياة المرء؛ كي يستطيع مواصلة حياته بأعبائها ومشقّاتها من أجل السّعي نحو تحقيق السّعادة، ومن أجل أن نجعل للّذّة مدخلًا في الإنسانيّة.[٦]

---

(١) ابن سينا، الحسين بن عبد الله (ت٤٢٧هـ/١٠٣٧م)، (١٩٥٤/١٣٧٣)، **الخطابة من كتاب الشّفاء**، تحقيق: محمد سليم سالم، وزارة المعارف العموميّة، الإدارة العامّة للثّقافة، ص٢٠٣.

(٢) الفارابي، **إحصاء العلوم**، ص٤٣.

(٣) الروبي، ألفت كمال، (١٩٨٣)، **نظريّة الشّعر عند الفلاسفة المسلمين من الكندي حتى ابن رشد**، (ط١)، بيروت، لبنان، دار التّنوير للطّباعة والنّشر، ص١٢٧.

(٤) الرازي، محمد بن زكريا (ت٣١٣هـ/٩٢٥م)، (١٩٧٧)، **رسائل فلسفيّة**، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ص٦٢.

(٥) الرازي، **رسائل فلسفيّة**، ص٦٢.

(٦) الفارابي، محمد بن محمد (ت٣٣٩هـ/٩٥٠م)، (١٩٦٧)، **كتاب الموسيقى الكبير**، تحقيق غطاس عبد الملك خشبة، القاهرة، دار الكاتب العربي للطّباعة والنّشر، ص١١٨٤– ١١٨٥.

دور الخيال في المعرفة:

إنّ معايير المعرفة ليست دائمًا علميّة في تمثّل حقائق الأشياء، فقد يكون مردّها التّخييل أو الوَهْم أو الخرافة، فالوسيلة التّخييليّة المتخيّلة آلة في الفكر،[1] حرص الفلاسفة المسلمون أن تكون موازية للتّصديق البرهاني؛ لأنّها تشكّل أداة للمعرفة تعتمد على الإثارة النّفسيّة للمتلقّي، الّتي يترتّب عليها أن يقوم بالفعل الّذي كان سيفعله لو علمه بالبرهان.[2] وذكر الغزالي أنّ "الخيال أوّل الإدراك"،[3] وقال: "الخيال الكثيف، إذا صُفّي ورقّ وهُذّب وضبط، صار موازيًا للمعاني العقليّة، محاذيًا لها، وغير حائل عن إشراق نور منها"[4]، وقال:" الخيال إذا صفا صار كالزّجاج الصّافي، وصار غير حائل عن الأنوار، بل صار مع ذلك مؤدّيًا للأنوار، بل صار مع ذلك حافظًا للأنوار عن الانطفاء بعواصف الرّياح."[5] ويرى الغزالي: أنّ العقل لا يتلقّى المعلومات من الحواس مباشرة، وإنّما المتخيّلة الّتي تجري منه **مجرى صاحب بريده** هي الّتي تتلقّى هذه المعلومات المختلفة من الحواس، يقول الغزالي: "إنّ القوّة الخياليّة المودعة في مقدّم الدّماغ تجري من العقل مجرى صاحب بريده تجتمع أخبار المحسوسات عندها، وتجري الحافظة الّتي مسكنها حوافز الدّماغ مجرى الخازن لهذا البريد، وتجري الحواس الخمس مجرى جواسيسه، فيوكل كلّ واحد منها بأخبار صقع من الأصقاع، فيوكل العين بعالم الألوان، والسّمع بعالم الأصوات، والشّمّ بعالم الرّوائح، وكذلك سائرها، فإنّها أصحاب أخبار يلتقطونها من هذه العوالم، ويؤدّونها إلى القوّة

(١) الغزالي، محمد بن محمد (ت٥٠٥هـ/١١١١م)، (١٤٢٠ـــ/٢٠٠٠)، **مقاصد الفلاسفة**، (ط١)، حقّقه وقدّم له محمود بيجو، دمشق، مطبعة الصّباح، ص١٩٩- ٢٠٠.

(٢) الروبي، ألفت كمال، **نظريّة الشّعر عند الفلاسفة المسلمين من الكندي حتى ابن رشد**، ص١٢٤.

(٣) الغزالي، محمد بن محمد (ت٥٠٥هـ/١١١١م)، (١٤٠١/١٩٨١)، **معارج القدس في مدارج معرفة النّفس**، (ط٥)، تحقيق لجنة إحياء التّراث العربي، بيروت، منشورات دار الآفاق الجديدة، ص١٥٧.

(٤) الغزالي، محمد بن محمد (ت٥٠٥هـ/١١١١م) (١٩٦٤)، **مشكاة الأنوار في توحيد الجبّار**، تحقيق وتقديم: أبو العلا العلا عفيفي، الدّار القوميّة، ص٨٤.

(٥) الغزالي، **مشكاة الأنوار في توحيد الجبّار**، ص٨٤.

الخياليّة الّتي هي كصاحب البريد"،[١]

واعتبر الغزالي الخيال ضروريًّا في ضبط معارف العقل فقال: "إنّ من بين خواص الخيال أنّه ضروريّ لتضبط به المعارف العقليّة، فلا تضطّرب ولا تتزلزل، ولا تنتشر انتشارًا يخرج عن الضّبط، فنعم المعين المثالات الخياليّة للمعارف العقليّة"،[٢]

ويعتبر ابن عربي الّذين يصفون الخيال بأنّه فاسد، أنّهم: "لا يدركون حقيقته؛ ذلك أنّ الخيال إذا أدرك شيئًا، فإنّما يدركه بنوره، والنّور لا يخطئ في كشفه عن الأشياء، وإن كان هناك خطأ فلا بدّ أن يكون لسبب آخر؛ إذ الخطأ وليد الحكم، والخيال لا يصدر حُكمًا، بل هو نور يكشف ستار الظّلمة الّذي يحجب الأشياء، إذن يجب أن يُنسَب الخطأ إلى القوّة الّتي تصدر الحكم وهي العقل، وإذا كان الحُكم لغير الخيال، فلا داعي لأن ننسب الخطأ أو الفساد إليه، إنّه من الأولى أن يقال: أخطأ العقل في فهم ما كشف الخيال عنه، حتّى لا يُنسَب الحكم بالخطأ والفساد إلى الخيال وهو بريء منه".[٣]

وبذلك برّأ ابن عربي الخيال عن الخطأ والمغالطة موقعًا الذّنب على العقل، فـــ: "الخيال أحقّ باسم النّور من جميع المخلوقات النّوريّة، فنوره لا يشبه الأنوار، وبه تدرك التّجليّات، وهو نور عين الخيال، لا نور عين الحسّ".[٤] فيحتلّ الخيال مرتبة وسطى بين المحسوس والمعقول، والممكن والمستحيل، وبدونه تكون المعرفة غير منسّقة.

(١) الغزالي، محمد بن محمد (ت٥٠٥هـ/١١١١م)، **إحياء علوم الدّين وبذيله كتاب المغني**، القاهرة، مصر، المكتبة التّوفيقيّة، ج٣، ص٩.

(٢) الغزالي، **مشكاة الأنوار في توحيد الجبّار**، ص٣٤.

(٣) قاسم، محمود، (١٩٦٩م)، **الخيال في مذهب محي الدين بن عربي**، معهد البحوث والدّراسات العربيّة، ص٨-٩.

(٤) قاسم، محمود، **الخيال في مذهب محي الدين بن عربي**، ص٩.

ومجّد الرومانسيّون في العصر الحديث الخيال على حساب العقل، فالخيال "قدرة سحريّة مبدعة تخلع الحياة على المحسوس، تنبثق منه الرّوح الّتي ينفخها في الأشكال والألوان".(١)

وترى الورقة أنّه قلّما وعى النّاس قدر الخيال وخطره،(٢) فهو ملكة منتجة لها القدرة على الإبداع والخلق، وبدونه لا يمكن تفسير أيّ شيء في العقل الإنساني، فجماع جهاز التّفكير يقوم على هذه الملكة.(٣)

وربّما كان ابن بطوطة على وعي بهذه الطّبيعة التّخييليّة لقصصه، فقصصه تستهدف إثارة المخيّلة لدى المتلقّي إثارة خاصّة، فيستطيع السّامع بواسطتها أن يفصل ويركّب، ويزيد وينقص، ويدرك معنى، فيلحقه بالصُّور(٤) الّتي تنهض به إلى طلب الشّيء المخيّل، أو الهرب عنه، أو النّزاع إليه، أو الكراهة له،(٥) "أو غير ذلك من الأفعال من إساءة أو إحسان، سواء صدّق ما يُخيّل إليه من ذلك أم لا، كان الأمر في الحقيقة على ما خُيّل أم لم يكن"؛(٦) لأنّ الصّدق في حدّ ذاته ليس كفيلًا بإحداث التّأثير لدى النّاس، "فقد "فقد يُصدّق بقول ولا يُنْفَعل عنه،" "فإن قيل مرّة أخرى، وعلى هيئة أخرى، انفعلت النّفس عنه طاعة للتّخييل لا للتّصديق".(٧)

(١) نصر، عاطف جودة، (١٩٨٤م)، **الخيال مفهوماته ووظائفه**، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ص١٢٢.

(٢) هلال، محمد غنيمي، (د.ت،)، **النّقد الأدبي الحديث**، القاهرة، دار نهضة مصر للطّبع والنّشر، ص٤١١.

(٣) نصر، عاطف جودة، **الخيال مفهوماته ووظائفه**، ص ٢٣-٢٤.

(٤) الغزالي، **مقاصد الفلاسفة**، ص١٩٩- ٢٠٠.

(٥) الفارابي، محمد بن محمد (ت٣٣٩ه/٩٥٠م)، (١٩٦١م)، **فصول المدني**، تحقيق: د.م. دنلوب، كمبردج، ص١٣٥، وينظر: عصفور، جابر، **نظريّة الفن عند الفارابي**، ديسمبر، (١٩٧٥م)، مجلّة الكاتب، ص٣١.

(٦) الفارابي، **فصول المدني**، ص١٣٥.

(٧) ابن سينا، **فنّ الشّعر**، ص١٦١ - ١٦٢، وينظر: ابن سينا، الحسين بن عبد الله (ت٤٢٧ه/١٠٣٧م)، (١٩٦٦)، **البرهان**، تحقيق عبدالرحمن بدوي، القاهرة، دار النّهضة العربيّة، ص١٧، والفارابي، محمد بن محمد (ت٣٣٩ه/٩٥٠م)، (١٩٦٩)، **الحروف**، تحقيق محسن مهدي، بيروت، دار المشرق، ص١٤٨، ١٥٢، والفارابي، =

ويرى الفارابي وابن سينا: أنّ تخييل الأمور ضرب من ضروب تعليم نوع خاص من المتلقّين هم: الجمهور والعامّة؛[١] فهم لا يستطيعون إدراك الحقائق أو المعقولات بالبرهان، وإنّما بالتّخيّل عن طريق الأقوال التّخييليّة خاصّة الّذين لا رويّة لهم ترشدهم، أو الّذين لهم رويّة لكنّهم آثروا التّخييل.[٢]

الخيال في رحلة ابن بطوطة مقاربة براغماتيّة جماليّة:

المقصود بالبراغماتيّة هنا -كما قلنا سابقًا- هي دراسة العلاقة المتبادلة بين الأقوال التّخييليّة والمقامات الّتي تتمّ فيها. فالتّخييل في قصص ابن بطوطة هدفه الأساسي: إعادة تشكيل بعض الحقائق أو الأمور أو المعارف تشكيلًا جماليًّا؛ للتّأثير في مخيّلة المتلقّي الّتي لا تلبث أن تستثار وتنفعل، ومن ثمّ تدفعه إلى اتّخاذ سلوك ما اتّجاه الشّيء المخيّل.

فابن بطوطة مثلًا تخيّل جرادة تتكلّم، فأفرز فيها ما يريد أن يرنو إليه ويطلبه؛ لتُسْهِم في تلقّ جميل مؤثّر، فمن بعض ما قاله ابن بطوطة في السّودان حكاية القاضي والجرادة فقال: "وحضرت مجلس السّلطان في بعض الأيّام، فأتى أحد فقهائهم، وكان قَدِم من بلاد بعيدة، وقام بين يديّ السّلطان، وتكلّم كلامًا كثيرًا، فقام القاضي فصدّقه ثم صدّقهما السّلطان، فوضع كلّ واحد منهم عمامته عن رأسه وترب بين يديه، وكان إلى جانبي رجل من البيضان، فقال: أتعرف ما قالوه؟ فقلت: لا أعرف، فقال: إنّ الفقيه قد أخبر أنّ الجرادَ وَقَع ببلادِهم، فخرج أحدُ صلحائهم إلى موضِع الجراد، فهاله أمرها، فقال:

=

محمد بن محمد (ت٣٣٩هـ/٩٥٠م)، (١٣٤٥/١٩٢٦)، **تحصيل السّعادة**، الهند، مطبعة دائرة المعارف العثمانيّة، حيدر أباد الدكن، ص٤٤،٣٨،٣٦،٣٣،٣١، والروبي، ألفت كمال، **نظريّة الشّعر عند الفلاسفة المسلمين**، ص ١٢٢.

(١) الفارابي، **فلسفة أرسطو طاليس**، ص٨٥، وينظر: الفارابي، **تحصيل السّعادة**، ص٣٦.

(٢) الفارابي، **فصول المدني**، ص١٣٥، وينظر: ابن سينا، الحسين بن عبد الله (ت٤٢٧ه/١٠٣٧م)، (بدون تاريخ)، **الإشارات والتّنبيهات مع شرح نصر الدين الطوسي**، (ط٢)، تحقيق سليمان دنيا، مصر، دار المعارف، ج٢، ص٣٦٢- ٣٦٣، والروبي، ألفت كمال، **نظريّة الشّعر عند الفلاسفة المسلمين**، ص١٢١- ١٢٢.

هذا جراد كثير، فأجابته جرادة منها، وقالت: إنّ البلادَ الّتي يكثر فيها الظّلْم، يبعثنا الله لفساد زرعها، فصدّقها القاضي والسّلطان، وقال السّلطان عند ذلك للأمراء: إنّي بريء من الظّلْم، ومن ظلم منكم عاقبته، ومن عَلِم بظالم ولم يُعْلِمْني، فذنوب ذلك الظّالم في عنقه، والله حسيبه وسائله، ولَمّا قال هذا الكلام وضع الفرارية عمائمهم عن رؤوسهم، وتبرّؤوا من الظّلْم.(١)

فابن بطوطة أنطق الجرادة؛ للتّعبير عن الظّلم الواقع في البلاد، وعندما قال: إنّ الجراد إذا تجمّع في مكان يجتمع بالآلاف؛ للدّلالة على الظّلم الكبير فيه، فهذا نقد اجتماعيّ وسياسيّ، من الصّعب أن يجرؤ المتكلّم الحديث عنه مباشرة؛ خوفًا من بطْش الحاكم.

وعندما أراد ابن بطوطة أن يُوَسِّع دائرة المعنى، ويصوّر عِظَم عِلْم أئمّة علم اللّسان الّذي منهم القاضي عماد الدين الكندي، تصوّر عَمامَة خرقت العادة في حجمها، فقال: " كان يعتمّ بعمامة خرقت المعتاد للعمائم، لم أرَ في مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها، رأيته يومًا قاعدًا في صدْر محراب وقد كادت عمامته أن تملأ المحراب."(٢)

وعندما تلمّس ابن بطوطة البحث عن حلّ للمشكلات، أو للمواقف الّتي قد يواجهها المتلقّي في لحظة معيّنة، سَرَد قصّة لِحْية جمال الدين الساوي، الّذي راودته امرأة عن نفسه فحلق لحيته وحاجبيه، فاستقبحت عندئذ هيئته، وعصمه الله بذلك. ولكن عندما اتّهمه القاضي ابن العميد بالابتداع في حَلْق لحيته، وأنّ فِعْله عظيم، "زعق الشّيخ ثم رفع رأسه، فإذا هو ذو لحية سوداء عظيمة، فعجب القاضي ومن معه، ونزل إليه عن بغلته، ثم زعق ثانية، فإذا هو ذو لحية بيضاء، ثم زعق ثالثة ورفع رأسه، فإذا هو بلا لحية كهيئته الأولى."(٣)

(١) **رحلة ابن بطّوطة**، ج٢، ص٢٠٢.

(٢) **رحلة ابن بطّوطة**، ج١، ص١٠.

(٣) **رحلة ابن بطّوطة**، ج١، ص١٨.

فهذا الفعل الخياليّ من قِبَل جمال الدين، يُسْهم في دَفْع المتلقّي إلى التّفكير في اتّخاذ قرار سريع؛ للخلاص من المأزق الّذي وُضع فيه، وإن كان هذا القرار يخالف ما يؤمن به، وهو حَلْق اللّحية والحاجبين؛ لأنّه بهذا الفعل أنقذ نفسه من فِعْل أعظم كان سيقع مع المرأة الّتي راودته. فجاء حَلْق اللّحية والحاجبين في مقام معيّن وموقف خاص، وهذا الفعل ليس ببدعة.

ولربّما أراد ابن بطوطة أن يذكّر المتلقّي بالوعد الّذي قطعه يومًا ثم نسيه عندما ذكر لنا كيفيّة إصابة (حَسَن) بالجنون، حيث قال: " كان (حَسَن) المجنون كثير التّطواف باللّيل، وكان يرى في طوافه باللّيل فقيرًا يكثر الطّواف، ولا يراه بالنّهار، فلقيه ذلك الفقير ليلة وسأله عن حاله وقال: يا (حسن)، إنّ أمّك تبكي عليك، وهي مشتاقة إلى رؤيتك، وكانت من إماء الله الصّالحات، أفتحبّ أن تراها؟ قال له: نعم، ولكنّي لا قدرة لي على ذلك. فقال له: نجتمع ها هنا في اللّيلة المقبلة إن شاء الله -تعالى- فلمّا كانت اللّيلة المقبلة وهي ليلة الجمعة، وجده حيث واعده، فطافا بالبيت ما شاء الله، ثمّ خرج وهو في إثره إلى باب المعلّى، فأمره أن يسدّ عينيه ويمسك بثوبه، ففعل ذلك، ثم قال بعد ساعة: أتعرف بلدك؟ قال: نعم. قال: ها هو هذا، ففتح عينيه فإذا به على دار أمّه فدخل عليها، ولم يعلمها بشيء ممّا جرى، وأقام عندها نصف شهر-وأظنّ أنّ بلده مدينة أسفي- ثم خرج إلى الجبانة فوجد الفقير صاحبه، فقال له: كيف أنت؟ فقال: يا سيّدي، إني اشتقت إلى رؤية الشّيخ نجم الدين، وكنت خرجت على عادتي، وغبت عنه هذه الأيّام، وأحبّ أن تردّني إليه. فقال له: نعم، وواعده الجبانة ليلًا. فلمّا وافاه بها، أمره أن يفعل كفعله في مكّة -شرّفها الله- من تغميض عينيه والإمساك بذيله، ففعل ذلك، فإذا به في مكّة -شرّفها الله- وأوصاه أن لا يُحدّث نجم الدين بشيء ممّا جرى، ولا يُحدّث به غيره. فلمّا دخل على نجم الدين قال له: أين كنت يا حسن في غيبتك؟ فأبى أن يخبره، فعزم عليه فأخبره بالحكاية. فقال: أرني الرّجل. فأتى معه ليلًا، وأتى الرّجل على عادته، فلمّا مرّ بهما قال له: يا سيّدي هو هذا، فسمعه الرّجل، فضرب بيده على فمه وقال: اسكت أسكتك الله،

فخرس لسانه وذهب عقله، وبقي بالحرم مولهًا، يطوف باللّيل والنّهار من غير وضوء ولا صلاة، والنّاس يتبركّون به ويكسونه".[1]

فهذه الصّورة التّخييليّة، الّتي جاء بها ابن بطوطة من قُدرة هذا الفقير على تلبية طلب (حَسَن) في كلّ مرّة بغمْضة عَيْن، تجعل المتلقّي يتوقّف عند هذه القصّة في كلّ مرّة يقوم بنَكْث عهْد. فَمِن طَبْع القوّة التّخييليّة الحَرَكة فلا تفْتر ولا في حالة نوم، فمن طَبْعها سرعة الانتقال من الشّيء إلى ما يناسبه، إمّا بالمشابهة وإمّا بالمضادّة، ومن طبعها المحاكاة والتّمثيل، وبها يتذكّر المتلقّي ما نَسِي، فإنّها لا تزال تُفتّش عن الصّور الّتي في الخيال، وتنتقل من صورة إلى صورة قربت منها، حتّى تعثُر على الصّورة الّتي منها أدرك المعنى المنسي، فيتذكّر بواسطتها ما نسيه، وتكون نسبة تلك الصُّورة إلى حضور ما يقارنها ويتعلّق بها، نسبة الحدّ الأوسط إلى النّتيجة، إذ بحضوره يستعدّ لقبول النّتيجة.[2]

ولعلّ الخيال يُسْهم إسهامًا كبيرًا، في تحريض المتلقّي وتشجيعه على ارتياد المجهول عند سماع قصّة طائفة الحَيْدريّة، الّذين يرقصون ويتمرّغون داخل النّار، ثم يطفؤونها بأكمام قميص رقيق.[3]

أمّا قصّة ابن بطوطة مع القلْب الفارح؛ فالخيال فيها يَطْرح للمتلقّي فُسحة من الأمل تضيء له الطّريق، وذلك في يوم اشتدّ العطش بابن بطوطة، وعدمت المياه، ووصل إلى قرية خراب، فلم يجد فيها حَوْضًا فقال:" وعادتهم بتلك القرى أن يصنعوا أحواضًا، يجتمع بها ماء المطر، فيشربون منه جميع السَّنة، فاتّبعْت طريقًا، فأفْضَت بي إلى بئر غير مطويّة، عليها حَبْل مصنوع من نبات الأرض، وليس فيه آنية يُستقى بها، فربطْتُ خرْقة كانت على رأسي في الحبل، وامْتَصَصْتُ ما تعلّق بها من الماء فلم تَرْوِني، فربطْتُ خُفّي

(١) **رحلة ابن بطّوطة**، ج١، ص٩٨.

(٢) الغزالي، **مقاصد الفلاسفة**، ص٢٠٠.

(٣) **رحلة ابن بطّوطة**، ج١، ص١١٥.

واسْتَقيْت به فلم يَرْوِني، فاستقيْت به ثانيًا فانقطع الحبل ووقع الخُفّ في البئر، فربطْتُ الخُفّ الآخر وشربْتُ حتّى رويت ثمّ قطَّعْته، فربطْتُ أعلاه على رجلي بحبل البئر وبِخرَق وجدتها هنالك، فبينا أنا أربطها وأفكّر في حالي إذ لاح لي شخص فنظرْتُ إليه، فإذا رجل أسود اللّون بيده إبريق وعكّاز، على كاهله جراب، فقال لي: سلام عليكم، فقلت: السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال لي بالفارسيّة: جيكس(جه كسي) معناه من أنت؟ فقلت له: أنا تائه. فقال لي: وأنا كذلك ثم ربط إبريقه بحبل كان معه، واستقى ماء، فأردت أن أشرب فقال لي: اصبر ثم فتح جرابه فأخرج منه غرفة حمّص أسود مقلوّ، مع قليل أرز فأكلْت منه، وشربت، وتوضّأ وصلّى ركعتين، وتوضّأت أنا وصلّيت، وسألني عن اسمي فقلت له: محمد، وسألته عن اسمه فقال لي: القلب الفارح، فتفاءلت بذلك وسُرِرْتُ به. ثمّ قال لي: بسم الله ترافقني، فقلت: نعم. فمشيت معه قليلًا، ثمّ وجَدْتُ فتورًا في أعضائي و لم أستطع النّهوض فقعدت، فقال لي: ما شأنك؟ فقلت له: كنت قادرًا على المشْي قبل أن ألقاك، فلمّا لقيتك عَجزْت، فقال: سبحان الله! اركب فوق عنقي فقلت له: إنّك ضعيف ولا تستطع ذلك، فقال: يقوّيني الله لا بدّ لك، فركبت على عنقه وقال لي أكثر من قراءة: حسبنا الله ونعم الوكيل، فأكثرت من ذلك. وغلبتني عيني فلم أفق إلّا لسقوطي على الأرض، فاستيْقظتُ و لم أرَ للرّجل أثرًا، وإذا أنا في قرية غامرة فدخَلْتها."[1]

ويفتح الخيال أمام المتلقّي أبعد الآفاق الممكنة، ويرافق مخاوفه ويلامسها، ويشرح له كيفيّة الخلاص منها، وذلك عند حديثه عن جزائر ذيبة المَهَل، وذِكْر العفاريت من الجنّ الّتي تضربها في كلّ شهر؛ "فكان يظهر عفريت من الجنّ، يأتي ناحية البحر كأنّه مركب مملوء بالقناديل، وكانت عادتهم إذا رأوه أخذوا جارية بكْرًا، فزيّنوها وأدخلوها إلى بدخانة –وهي بيت الأصنام– وكان مبنيًّا على ضفّة البحر، وله طاق ينظر إليه، ويتركونها هنالك ليلة، ثمّ يأتون عند الصّباح فيجدونها مفتضّة ميّتة، ولا يزالون في كلّ شهر يقترعون

(١) **رحلة ابن بطّوطة**، ج٢، ص٩٨.

بينهم، فمن أصابته القرعة أعطى بنته، ثم أنّه قدم عليهم مغربيّ يُسمّى بأبي البركات البربري، وكان حافظًا للقرآن العظيم، فنزل بدار عجوز منهم بجزيرة المهل، فدخل عليها يومًا وقد جمعت أهلها وهنّ يبكين كأنّهن في مأتم، فاستفْهَمْن عن شأنِهن فلم يفْهَمْنه، فأتى تُرجمان فأخبره أنّ العجوز كانت القرعة عليها، وليس لها إلّا بنت واحدة يقتلها العفريت. فقال لها أبو البركات: أنا أتوجّه عوضًا من بنتك بالّليل، وكان سناطًا لا لحية، فاحتملوه تلك الّليلة وأدخلوه إلى بدخانة وهو متوضّئ، وأقام يتلو القرآن ثم ظهر له العفريت من الطّاق، فداوم التّلاوة، فلمّا كان منه بحيث يسمع القراءة غاص في البحر، وأصبح المغربيّ وهو يتلو على حاله، فجاءت العجوز وأهلها وأهل الجزيرة؛ ليستخرجوا البنت على عادتهم فيحرقوها، فوجدوا المغربيّ يتلو، فمضوا به إلى ملكهم وكان يسمّى شنوارازة- بفتح (الشّين) وضمّ (النّون) و(واو) و(راء) و(ألف) و(زاي) و(هاء)- وأعلموه بخبره، فعجب وعرض المغربيّ عليه الإسلام ورغّبه فيه، فقال له: أقم عندنا إلى الشّهر الآخر، فإن فعلت كفعلك ونَجَوْت من العفريت أسْلَمْت، فأقام عندهم، وشرح الله صدر الملك للإسلام فأسلم قبل تمام الشهر، وأسلم أهله وأولاده وأهل دولته، ثم حمل المغربيّ لّما دخل الشّهر إلى بدخانة، ولم يأت العفريت فجعل يتلو حتّى الصّباح، وجاء السّلطان والنّاس معه، فوجدوه على حاله من التّلاوة فكسروا الأصنام، وهدموا بدخانة، وأسلم أهل الجزيرة، وبعثوا إلى سائر الجزائر فأسلم أهلها، وأقام المغربيّ عندهم معظّما، وتمذهبوا بمذهبه مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وهُم إلى هذا العهد يعظّمون المغاربة بسببه، وبنى مسجدًا هو معروف باسمه، وقرأت على مقصورة الجامع منقوشًا في الخشب: أسْلَم السّلطان أحمد شنوارزة على يد أبي البركات البربريّ المغربيّ، وجعل ذلك السّلطان ثلث مجابي الجزائر صَدَقَة على أبناء السّبيل؛ إذ كان إسلامه بسببهم، فسمي على ذلك حتى الآن، وبسبب هذا العفريت، خرب من هذه الجزائر كثير قبل الإسلام. ولما دخلناها لم يكن لي عِلْم بشأنه، فبينا أنا ليلة في بعض شأني، إذ سمعْتُ النّاس يجهرون بالتّهليل والتّكبير، ورأيت الأولاد على رؤوسهم المصاحف، والنّساء يضربن في الطّسوت وأواني

النّحاس، فعجبْتُ من فِعْلِهم وقلت: ما شأنكم؟ فقالوا: ألا تنْظُر إلى البحر؟ فنظرتُ، فإذا مثل المركب الكبير، وكأنّه مملوء سرجًا ومشاعل، فقالوا: ذلك العفريت، وعادته أن يظهر مرّة في الشّهر، فإذا فعلنا ما رأيت انصرف عنّا و لم يضرّنا".[١]

ويدفع الخيال إلى تصوّر اللّاممكن والمستحيل؛ وذلك عند حديث ابن بطوطة عن امرأة لها ثدي واحد في صدرها في بعض تلك الجزائر، ولها ابنتان إحداهما كمثلها لها ثدي واحد، والأخرى ذات ثديين، إلّا أنّ أحدهما كبير فيه اللّبن، والآخر صغير لا لبن فيه.[٢]

ويصوّر الخيال أحلام المتلقّين وآمالهم في التّقدُّم العلميّ، ولربّما الوصول يومًا إلى وَصْفَة تُعيد الشّباب لكبار السّنّ، محاولًا تجاوز الواقع لاستشراف المستقبل؛ وذلك عندما ذكر ابن بطوطة شجرة (رَوان) فقال: "هي شجرة عاديّة، لا يسقط لها ورق، و لم أرَ من رأى ورقها، ويعرفونها أيضًا بالماشية؛ لأنّ النّاظر إليها من أعلى الجبل، يراها بعيدة منه قريبة من أسفل الجبل، والنّاظر إليها من أسفل الجبل، يراه بعكس ذلك، ورأيت هنالك جملة من الجوكيّين -الفُرسان- ملازمين أسفل الجبل ينتظرون سقوط ورقها، وهي بحيث لا يمكن التّوصّل إليه ألبتّة، ولهم أكاذيب في شأنها من جُملتها، أنّ من أكل من أوراقها عاد له الشّباب إنْ كان شيخًا."[٣]

وهكذا نرى: أنّ ابن بطوطة قد نبّه برحلته الأفكار، وأيقظ الأذهان، ووجّه الأنظار، عندما استخدم في حكاياته (التّخييل) "فيما يسخط، ويرضي، وفيما يفزع ويؤمن، وفيما يلين النّفس، وفيما يشدّها، وفي سائر عوارض النّفس."[٤]

(١) **رحلة ابن بطّوطة**، ج٢، ص١٢٥- ١٢٦.

(٢) **رحلة ابن بطّوطة**، ج٢، ص١٣٤.

(٣) **رحلة ابن بطّوطة**، ج٢، ص١٤٠.

(٤) الفارابي، **فصول المدني**، ص١٣٥.

الخاتمة

قامت هذه الورقة بمحاولة مقاربة قصص الخيال في رحلة ابن بطوطة مقاربة براغماتيّة جماليّة؛ فخرجت بما يلي:

-الخيال أشرف القوى العقليّة وأعجبها وأحقّها بأن تسمّى عقلًا.

-يعدّل التّخييل من صورة الواقع ويُخلّف إحساسًا باللّذّة والمتعة.

-اللّذّة أو المتعة الّتي يحقّقها التّخيّل في القصص الخياليّة هي الّتي تسوّغ للمتلقّي الإقبال عليها وتفضيلها على الواقع، وبها يفرح رغم بُعدها واختلافها عن هذا الواقع.

-أدرك الفلاسفة المسلمون أنّ الشّعور باللّذة أو المتعة يحقّق نوعًا من الرّاحة للإنسان، يُعينه على استرداد طاقاته الّتي يتوجّه بها نحو أفعال الجدّ، وتجديدها.

-معايير المعرفة ليست دائمًا علميّة في تمثّل حقائق الأشياء، فقد يكون مردّها التّخييل أو الوَهْم أو الخرافة، فالوسيلة التّخييليّة المتخيّلة آلة في الفكر.

-تَتْبَع أفعال الإنسان تخيّلاته أكثر ممّا تَتْبَع ظنّه أو علمه.

-الخيال ملكة منتجة لها القدرة على الإبداع والخَلْق، ومن دونه لا يمكن تفسير أيّ شيء في العقل الإنساني، فجماع جهاز التّفكير يقوم على هذه الملكة.

-اعتبر الغزالي الخيال ضروريًّا في ضبط المعارف العقليّة، فلا تضطّرب ولا تتزلزل ولا تنتشر انتشارًا يخرج عن الضّبط.

-يرى الفارابي وابن سينا أنّ تخييل الأمور ضرب من ضروب تعليم نوع خاص من المتلقّين هم: الجمهور والعامّة.

-رأت الورقة من خلال الوقوف على الطّبيعة التّخييليّة لقصص ابن بطّوطة في رحلته، وكَشْف أبعادها الجماليّة البراغماتيّة، أنّ الخيال الّذي تتقوّم به هذه القصص ذو إيحاءات عديدة، وبأنّه جزء أصيل في خطاب الرّحلة، وبأنّه لون من ألوان المعرفة الّذي

يعتمد على الكشْف. ورأت أنّ الصّورة التّخييليّة، الّتي يقدّمها ابن بطوطة بقصد الاستمتاع على حسب ما تقتضيه الحقيقة البرهانيّة، المراد توصيلها إلى الآخر، تستدعي خبرات سابقة تكون لديه، تجعله يقارن بين الصّورة وما يماثلها في الواقع، وتدفع به إلى إعادة تأمّل واقعه، وإنتاجه من جديد.

-وأخيرًا: توصي الورقة المتلقّي والباحث بالكشْف عن أبعاد جماليّة براغماتيّة أخرى للقوى الخياليّة في قصص ابن بطوطة الّتي سردها في رحلته.

المصادر والمراجع

١. أبو البقاء الكفوي، أيوب بن موسى، (١٩٨٢م)، **الكلّيات معجم في المصطلحات والفروق اللّغويّة**، (ط٢)، تحقيق عدنان درويش، ومحمد المصري، دمشق، وزارة الثّقافة.

٢. أنيس، إبراهيم ومنتصر، عبد الحليم والصوالحي، عطية، وأحمد، محمد خلف الله، (١٣٩٢- ١٩٧٢م)، **المعجم الوسيط**، (ط٢)، أشرف على الطّبع حسن علي عطية ومحمد شوقي أمين، القاهرة.

٣. ابن بطوطة، محمد بن عبد الله، (١٩٥٨- ١٣٧٧هـ)، **رحلة ابن بطّوطة: تحفة النّظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، مصر، المكتبة التّجارية الكبرى.

٤. ابن الخطيب، محمد بن عبد الله، (١٤٢٤)، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، (ط١)، بيروت، دار الكتب العلميّة.

٥. الرازي، محمد بن زكريا، (١٩٧٧)، **رسائل فلسفيّة**، بيروت، دار الآفاق الجديدة.

٦. **رسائل إخوان الصّفا وخلّان الوفاء**، (١٣٤٧- ١٩٢٨م)، عُني بتصحيحه خير الدين الزركلي، مصر، المطبعة العربيّة.

٧. الروبي، ألفت كمال، (١٩٨٣م)، **نظريّة الشّعر عند الفلاسفة المسلمين من الكندي حتى ابن رشد**، (ط١)، بيروت، لبنان، دار التّنوير للطّباعة والنّشر.

٨. ابن سينا، الحسين بن عبد الله:

- (بدون تاريخ)، **الإشارات والتّنبيهات مع شرح نصر الدين الطوسي**، (ط٢)، تحقيق سليمان دنيا، مصر، دار المعارف.

- (١٩٦٦م)، **البرهان**، تحقيق عبد الرحمن بدوي، القاهرة، دار النّهضة العربيّة.

- (١٩٥٦م)، **تأويل الرّؤيا**، تحقيق محمد عبد الحميد خان، ضمن، Avicenna Calcutta،Commemoration Volume

- (١٣٧٣هـ/١٩٥٤م)، **الخطابة من كتاب الشّفاء**، تحقيق محمد سليم سالم، وزارة المعارف العموميّة، الإدارة العامّة للثّقافة.

- (١٩٧٥م)، **الشّفاء– النّفس**، تحقيق جورج قنواتي وسعيد زايد، القاهرة.

- (١٩٥٣م)، **فنّ الشّعر من كتاب الشّفاء ضمن كتاب أرسطو طاليس، فنّ الشّعر**، تحقيق عبد الرحمن بدوي، القاهرة، مكتبة النّهضة المصريّة.

٩. ضيف، شوقي، (د.ت)، **الرّحلات**، (ط٤)، القاهرة، دار المعارف.

١٠. عبد الحميد، خان محمد، (١٩٣٧م)، الأساطير العربيّة قبل الإسلام، القاهرة.

١١. عبد النور، جبور، (١٩٧٩م)، **المعجم الأدبي**، بيروت، دار العلم للملايين.

١٢. عصفور، جابر، (١٩٧٥م) ديسمبر، **نظريّة الفن عند الفارابي**، مجلّة الكاتب.

١٣. العوامري بك، أحمد، وجاد المولى بك، محمود، (١٩٣٣م)، **مهذّب رحلة ابن بطّوطة**، القاهرة، وزارة المعارف العموميّة المصريّة، المطبعة الأميريّة.

١٤. الغزالي، محمد بن محمد:

- (بدون تاريخ)، **إحياء علوم الدّين وبذيله كتاب المغني**، مصر، القاهرة، المكتبة التّوفيقيّة.

- (١٩٦٤م)، **مشكاة الأنوار في توحيد الجبّار**، تحقيق وتقديم: أبو العلا عفيفي، الدّار القوميّة.

- (١٤٠١هـ/١٩٨١م)، **معارج القدس في مدارج معرفة النّفس**، (ط٥)، تحقيق لجنة إحياء التّراث العربي، بيروت، منشورات دار الآفاق الجديدة.

- (١٩٦١م)، **معيار العلم**، تحقيق سليمان دنيا، مصر، دار المعارف.

- (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، **مقاصد الفلاسفة**، (ط١)، حقّقه وقدّم له: محمود بيجو، دمشق، مطبعة الصّباح.

١٥. الفارابي، محمد بن محمد:

- (١٩٩٦م)، **إحصاء العلوم**، (ط١)، قدّم له وشرحه وبوّبه علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال للطّباعة والنّشر.

- (١٣٤٥هـ/١٩٢٦م)، **تحصيل السّعادة**، الهند، مطبعة دائرة المعارف العثمانيّة، حيدر أباد الدكن.

- (١٩٦٩م)، **الحروف**، تحقيق: محسن مهدي، بيروت، دار المشرق.

- (١٩٦١م)، **فصول المدني**، تحقيق: د.م. دنلوب، كمبردج.

- (١٩٦١م)، **فلسفة أرسطو طاليس وأجزاء فلسفته ومراتب أجزائها والموضع الذي منه ابتدأ وإليه انتهى**، تحقيق: محسن مهدي، بيروت، دار مجلّة شعر.

- (١٩٦٧م)، **كتاب الموسيقى الكبير**، تحقيق: غطاس عبد الملك خشبة، القاهرة، دار الكاتب العربي للطّباعة والنّشر.

١٦. قاسم، محمود، (١٩٦٩م)، **الخيال في مذهب محي الدين بن عربي**، معهد البحوث والدّراسات العربيّة.

١٧. القرطاجني، حازم بن محمد، (١٩٨٦م)، **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، (ط٣)، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

١٨. نجار، منال، (٢٠١١م)، **نظريّة المقام عند العرب في ضوء البراغماتيّة**، (ط١)، الأردن، إربد، عالم الكتب الحديث.

١٩. نصر، عاطف جودة، (١٩٨٤م)، **الخيال مفهوماته ووظائفه**، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب.

٢٠. هلال، محمد غنيمي، (د.ت)، **النّقد الأدبي الحديث**، القاهرة، دار نهضة مصر للطّبع والنّشر.

المصادر باللغة الإنجليزية:

21. Stephen C. Levinson، (1983). Pragmatics, Cambridge University Press, London, New York.